

ما هو أدب اليوم؟ ...

للأستاذ كرم ملحم كرم

بارس ، ومارسيل بريفو ، وهنري بوردو ، وريته بازان ، وبول بورجيه ، فان أعظم أدباء فرنسا لا تقوم شهرتهم على سوى الروايات التي أنشأوها ، ومثلهم أدباء انكلترا وروسيا . فالقصة إذاً أساس الأدب العالمي

والدين نفسه يقوم على الروايات . فما هو كتاب التوراة ، وما هو الانجيل ، وما هو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب الدينية أكبر نصيب ؟

وإن تكن التوراة أقدم كتاب تتداوله الأيدي ويتسنى للجميع الاطلاع عليه ، جاز لنا القول أنه أول كتاب عرفه العالم مشيد الأركان على القصة . فهو يبدأ بقصة وينتهي بقصة . والكتب الخالدة في معظمها — إذا استثنينا كتب الفلسفة والعلم — كتب قصصية سواء صبت نظماً أو تراً

ولا شأن اليوم في المؤلفات الأدبية لسوى المؤلفات القصصية ، وهذه الكتب التي تتمتع بالجوائز الضخمة ، ولا سيما جائزة « نوبل » ، لا تخرج في سوادها الأعظم عن النطاق الروائي

ولقد جاء الأدب العربي في عهده الأول بما يعجز عنه الغرب من قصص وروايات . فما هي « كليلية ودمنة » ، وما هي « الف ليلة وليلة » ، وما هو « عنتر » ، بل ما هي « الأغاني » ، وما هو « السطرف » ، وما هو « المقدم الفريد » ، وما هي « نهاية الأرب » ؟ ... كلها روايات وقصص : وإن تكن كليلية ودمنة غير عربية المولد فهي لم تخلد في سوى النص العربي . وبإستطاعة لفة الضاد أن تبناها ، خصوصاً ولها عليها إستبقائها يد يضاء

وما يقال في كليلية ودمنة يقال في ألف ليلة وليلة . فالأدب العربي احتضن ألف ليلة وليلة وتمهدها بالبقاء . ويمكن الأدهاء أنها عربية الوجه واللسان . أما رواية « عنتر » فقد روى أنها من سبك الأسمى . والأسمى — الف رحمة الله عليه — خير من لفق واخترق ، وروى وتحديث ، وسرد وابتكر واخترع . ولقد أتى بالجانب وهو في تلك الصحراء الكاوية اللاذعة . فبهر العيون وملك الأبواب بنزارة علمه وفرط ذكائه وعذوبة حديثه وفيضان بجمه . فانه ليتدفق كالسيل في الحديث عن الأعراب وعشقمهم وغرامهم . ويروي حكاياتهم بدقة وإبداع ، فيسحر سميعه وجليسه ، ويستدر رفد الملوك والمظالم ، ويجود

أدب اليوم رواية وقصة

فالنشئون من أى طبقة كانوا لا يمتدون في معظم مؤلفاتهم على غير الحكاية والرواية ، فالفن القصصي هو السائد . وأكثر الأدباء بلغوا القمة في إخلاصهم لهذا الفن . ولا بدع ، فالرواية عمك الأدباء . المنشئ البليغ يظهر فيها ، والكاتب الركيك السمج يفضح نفسه إذا توكل عليها

وأكابر الأدباء في العالم لجأوا إلى القصة يذيون فيها بلاغتهم وقوة بيانهم . فما أحجم عنها « فولتير » ولا « جان جاك روسو » ولا « لامارتين » ولا « ألفرد ده موسيه » ولا « فكتور هوجو » ولا « فرنسوا كويه » ولا « تولستوى » ولا « ادجار والاس » ولا « كوناك دويل » ، فكلهم مال إلى القصة بما لجأها

وإذا لم تكن رواية « غرازيللا » أو رواية « رافائيل » أسمى من شعر لامارتين فهما لا تقلان سمواً عن هذا الشعر . وإذا لم تكن رواية « البائسون » لفكتور هوجو أرفع من منظومه فلقد عادلته هذا المنظوم ، ونفحت الشاعر بشهرة فوق شهرته ، وزادت في تخليده ، وحلت عشاق الأدب الروائي على التحدث عنها في العالم أجمع . فان شهرة « البائسون » شهرة عالمية لا يجهلها نادر أدبي . وما يقال فيها يقال في « غرازيللا » و « رافائيل » للامارتين ، وفي اعترافات جان جاك روسو . أليست اعترافات جان جاك روسو حكاية من الحكايات وفيها يحدث الرجل عن نفسه ؟ ...

نعم لقد تربع جان جاك روسو في « عقده الاجتماعي » في ذروة الفلسفة ، على أن « اعترافاته » رفعت من مقامه كأديب ، وياتت خالدة كتولفه الفلسفي ، فمن شاء الوقوف على حياة الرجل فليس له إلا أن يقلب « الاعترافات » فيدرك من هو جان جاك روسو

و « اتاول فرانس » أستاذ الأدباء في مطلع القرن العشرين مدين بشهرته لرواياته ، ومثله بلزاك ، وأميل زولا ، وموريس

يملون الى الجديد . وروايات ألف ليلة وكليلة ودمنة مما يجوز أن نسميه جديداً ، وإن تكن انبثقت منذ ألف عام .

ولا نكير في أن ثمة خرافات وأساطير ، على أن الخرافات والأساطير إذا عرضت على الناس في إناء مزخرف يراق وكانت دسمة طيبة ازدردها الناس وهضمها المد . وخرافات ألف ليلة وكليلة ودمنة كالفاتنة الحسناء ، وكل مايباب على ألف ليلة وليلة المجهولة الأم والأب أنها ركيكة ضعيفة في قالبها ، ولو اتفق لها من يصوغها في بيان ابن المقفع لنافست كليلة ودمنة في متانة تبييرها وصحة معناها .

ومما نستدل به على أن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يثيران ضجة بعيدة الصوت في الأدب العربي ، لو رزا اليوم الى النور ، ويترجمان في القمة العليا من الفن الروائي ، مايطحيان من غزو الروائين الأجانب . فكل يوم يزحان تحت غارة جديدة ، وليست رواية « حديقة على العاصي » للكاتب الفرنسي المشرق الديباجة « موريس بارس » غير قبس من ألف ليلة وليلة . وما رواية « الألاتيد » لبيير بنوا غير صفحة من صفحات ألف ليلة وليلة . فكأنها مستوحى أدباء الفرنج يسلبونها أطايبها الباحة دون أن يقب في سبيلهم من يقول لهم : ماذا تفعلون ؟

ومع كل احترامنا للتوراة وتقديرنا لها نجرؤ على أن تقارن بينها وبين ألف ليلة وليلة مقارنة صادقة لارى مطلقاً الى الخط من قدر الكتاب الكريم . إن هي إلا مقارنة أدب بأدب . وكل مايريد إثباته أن ألف ليلة وليلة أفتح لدى كتاب الغرب أشبه بالتوراة . فكما يفيرون على التوراة يستوحونها يفيرون على ماجلدت به علينا شهرزاد اللسانة ، أو الثرارة ، التي لا تسكت عن الكلام البليح إلا حين يطلع الصبح .

ولا تفت غارة كتاب الغرب عند ألف ليلة وليلة ، بل هم يشنون أبداً الفارة علينا ويستأثرون بكنوزنا ونحن عنهم في غفلة ، فلا نراهم إلا يشدون الرحال الى هذا الشرق ، هذا الشرق الحافل بكل غريب ، الطافح بالأمراء ، اللبثقة منه الأديان ، التصاعدة من معابد روائح البحور تنفثها الجمامير الحمراء . هذا الشرق القديم في حضارته وهياكله وأهله ، الثقيل بالرموز والأشباح والغاريت ، الخيمة عليه خبرات داود وحكمة سليمان ، هذا

بالمعجزات فيفسر عنه التطاير والمقلد واللاحق ، كأن سر الرواية في الأدب العربي القديم ايفتح على غير الأسس

ولو ظهرت كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة في هذا العهد لكان الأدب العربي سيداً في الفن الروائي ، حتى وإن يكن ثمة من يزعم أن الكتائين ليسا من مبتكرات الأدب العربي ، فليس من أدب غير الأدب الشرق يسبح في هذا الخيال الرحيب الخصب

ولا ننسى أن أداء القصة وسياقها في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة يختلفان كل الاختلاف عن مثلهما في روايات اليوم . فهما جديدان مبتكران لقوة الخيالة فهما اليد الطولى . ومن المحال أن يوفق فيهما ويهتدى اليهما من لم يكن يخلق في الأفلاك

واختلافهما عن روايات اليوم يبينهما إلى عشاق الروايات ويفسحان لها المقام الأول في الأدب التالي ، ولكن أين من يقوى على توفير ذلك النسيج ؟

ربما جهل الأدب العربي يوم طلعت في سمانه « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » قيمة هذين السفرين . ربما أعرض عنهما وشغف بمقامات الهمداني والحري - ومقامات الهمداني والحري فن روائي خاص - على أنه اليوم يدرك شأنهما ولا يتسكر لها بل يفاخر بهما وإن يكن استمدهما من بلاد الهند وفارس كما ذاع وشاع

لقد كان الأدب اليوناني يحفل بهنه الأفايص البارزة في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة . ومن هذا الأدب نهل « لافوتين » في أفايصه الفرنسية ذات الشعر الطليق . على أن ثمة من يقول ، ويثبت ما يقول : أن « لافوتين » سمع بكليلة ودمنة فاقبس منها وصاغ تلك الأفايص الواقعة في طولها عند الفتر ، وإن تجاوزته قالى الشعر ، اللأى بالمعزى الرائع والارشاد البليغ ، فاستمان بالحيوات على تأذيب اللوك شأن ابن المقفع في كليلة ودمنة . وما يدل على اقتباس « لافوتين » من كليلة ودمنة أن بين ابن المقفع ولافوتين نحواً من ألف سنة ، وأين كان الأدب الفرنسي يوم كان الأدب العربي زاهراً روناً يناطح السحاب ؟ ..

قد نسمع ممن يحدته عن كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة أنها شيء قديم . غير أن هذا القديم لا يخلق جديده . فهو أبداً جديد . وعشاق الروايات وقد ملوا طراز اليوم ، وبمضه يشبه بعضياً ،

من سرقاته لا من مبتكراته . وكل فتنته فيها أنه انتقل بها الى أفريقيا ، الى الصحراء ، الى تلك الديار القاحلة العجرا . وماذا يقال عنه فيها ؟ . . . يقال إنه صاحب « الاتلاتيد » ليس غير . وقد يجوز لك أن تقرأ « الاتلاتيد » كما يجوز ألا تقرأها . فإذا قرأتها خرجت منها صفر اليدين . وإذا وقفت عن قراءتها رحمت الوقت إن يكن الوقت عزيزاً عليك . وقد تسأل : كيف بلغت رواية « الاتلاتيد » هذه الشهرة العالمية ؟ . . . وجوابنا أن المؤلف أجاد بث الدعوة لروايته ، فداع لها الصوت العاطر في الأندية الأدبية جماء قبل أن تقف هذه الأندية على مضمونها . وشاق الذين طالعوها من الغربيين تلك الصبغة الشرقية فيها . وجاءت دور السيمياء ترفع من مكانها . ولحق يقال إن « الاتلاتيد » نجحت في عالم السيمياء أكثر منها في عالم الأدب واليوم و « بير بنوا » يفكر في وضع روايته الصليبية سوف ترى أي وحى هبط عليه . أيدرك التوفيق أم لا يوفق ، ونحن نرتاب في توفيقه لمرفتنا شأنه الأدبي . غير أننا لا نستطيع الانكار ان الرجل من النزاة الفاحمين . فهو يقبل علينا بتزج منا موضوعاته الروائية ونحن نشاهد ما عندنا من كنوز ولا نكف أنفسنا نبشها وإبرازها الى النور . فالرواية في الأدب الغربي الجديد لا تزال في المهدي ، مع أن العصر السياسي خفلت بها وراحت تقاخر العالم بثارها اليانعة الشمية ، ولا يرح العالم يتذوق هذه الثمار ويستذوقها ما دام الأدب وضاء الجبين

وليت أدباء اللغة العربية يدركون اليوم شأن القصة ، فتعالجها أقلامهم بما يبيد الى الأدب العربي مكاتته الأولى وعزبه القديم . فالرواية حجر الزاوية في كل أدب ، وفي كل نهضة ، وفي كل دين !

بيروت
كرم عظيم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

الشرق الراسخة فيه المساجد العالية القباب ، والمآذن الناطحة السحاب ، والستورة فيه المرأة وراء ألف حجاب وحجاب . هذا الشرق مهد الناقة والبمير ، الهادية فيسه المأمم والقلائس والطرايش ، المكردسة فيه الذكريات أطباقاً فوق أطباق ، من عهد الفراعنة ، الى عهد العبرانيين ، الى عهد الأشوريين ، الى عهد الفرس ، الى عهد العرب ، الى عهد الأتراك .

وعليتنا ألا ننسى الصليبيين . فالصليبيون أموا هذه الديار . ومنذ أقبلوا والثارات علينا تلو الفارات في الليادين كلها ، في السياسة والأدب ، فمن غزوا الى استعمار . !

ومن غزاتنا في أدينا « بير بنوا » القصصى الفرنسى . فهو يفكر اليوم في وضع رواية تتناول فصولها جماعة الصليبيين وتدور حوادثها عليهم . فهم أبطالها وسادتها وحجر الزاوية فيها ، وليبير بنوا أن يقول في الصليبيين ماشاء . فالقول ذو سعة ، ومخيلة الكاتب قد تأنيه بالمبتكر . ولكن هل عودنا بير بنوا الأبتكار ؟ . . .

كل مارأينا من بير بنوا لا يزيد على كونه مقتبساً ، وهذا الاقتباس لاغبار عليه لوعرف الكاتب كيف يتلاعب به ويمنحه من قوة الخيال والجمال ما يرفع من شأنه ويزيد في قدره ، أما أن يكتب بالاقباس دون أن يضيف إليه الأبتكار المورق السمين فأى عمل أنه ؟ . . .

وبير بنوا ليس من المبتكرين في إنشائه ولا في حوادث روايته فهو من الطبقة الوسطى في الروائيين ، وفي طبقة دون الوسطى في المنشئين ، حتى وإن يكن يكتب باللغة الفرنسية . فليس كل ما يكتب باللغة الفرنسية وبسائر اللغات الحية بليفاً على الديساجة باقياً على ممر الأيام . فكل لغة حاقة بالبتذل انسخيف . كل لغة يتلاشى منها معظم ما يكتب الكتاتيون وينشر الناشرورن . ولا يخلد من عمار القراع غير جزء من عشرة آلاف جزء . ولذا بقى شيء من مواليد « بير بنوا » الأدبية ، فلا ريب بأن روايته « ربة قصر لبتان » وقد استعملها من كتبان . ليست بذلك الجزء الباقى . فهي تحت رحمة النناء ، وربما استعملها أن تتهاها منذ الآن .

قد تبقى منه رواية « الاتلاتيد » ، على أن رواية « الاتلاتيد »

صحى الإسلام

وهو الكتاب الطال لغير الإسلام

لنوستاز امرأع

عنه ٢٠ غرشا